المحاضرة الرابعة:السرد الإجتماعي

لقد شهد حقل الدراسات الأدبية عددا من الاتجاهات التي كانت تغلب عدم قبولها تفسير الأدب في ضوء العوامل الاجتماعية وتشدد على أن فهم الأدب ينبغي أن يتمّ بالنظر الى بنيته المكتفية ذاتيا والمغلقة على عناصرها الأدبية ، مثل الاتجاهات الشكلية والبنيوية والسيميولوجية[1] ، غير أنّ هذه الاتجاهات كانت تنحو من تطوراتها اللاحقة الى الاعتراف بعدم عزله وقائع التعبير الأدبي عن سياقاتها الاجتماعية والتاريخية . وتمة كانت تعود بصورة أو بأخرى تحت التيار العام .

يعد العمل الأدبي أو الفني هو نتاج شخصي بالمستوى الذي يكون فيه نتاجا إجتماعيا أو إنسانيا ن فهو شخصية واحدة وحياة سيكولوجية واحدة وذلك لأنّه متجدد ، ومبني على علاقة لها صلة بكل العوامل والمؤثرات التي تدخل عالم الشخصية وتسهم في منحها طابعا ولونها وحقيقتها ففي الشخصية بنى ومستويات شعورية وعقلية .

01 - : تمظهر الجانب الاجتماعي في مقامات بديع الزمان الهمذاني :

لعل من الأعمال الأدبية التي عكست الجانب الاجتماعي في التراث العربي " المقامات" لبديع الزمان الهمذاني ، والتي تحتوي على أربع مئة مقامة " الكوفية ، البصرية ، البغدادية ..." ، والتي تسرد مغامرات أبي الفتح الاسكندري في العصر العباسي . فالمقامة البغدادية عبرت عن الجانب الاجتماعي من خلال استعمال أبي الفتح الاسكندري الحيلة والذكاء ليحتال على السوادي ويستغل نفوذه لسد جوعه إذ يقول :" اشتهيت الآزاد وأنا ببغداد وليس معي عقد على نقد فخرجت أنتهز محاله حتى أحلني الكرخ ، فإذا بسوادي يسوق بالجهد حماره ويطرق بالعقد إزاره ....." فالمقامة تشير إلى الفقر الذي دفع بالشخصية الى الاحتيال ، وكسب القوت بطريقة ملتوية " المكر والخذاع"[2].

إنّ تفشي الاحتيال والسرقة والفقر في المجتمع ، دفع إلى تأليف هذه الحكايات في كل مغامرات لبطل ينتحل شخصيات عدّة في أمكنة عدّة بأسلوب السجع والحوار مع توظيف الحكمة في الشعر .

02 -المقامة :

عُرفت المقامات، كما يقول د. شوقي ضيف، منذ وقت مبكر خارج الأدب العربي: ففي الأدب الفارسي مثلًا ألف القاضي حميد الدين أبو بكر بن عمر البلخي ثلاثًا وعشرين مقامة على نسق مقامات الحريري وأتمها سنة 551هـ، وكذلك عرفت في الأوساط اليهودية والمسيحية الشرقية فترجموها وصاغوها على مثالها باللغتين العبرية والسريانية، أما في أوروبا فقد عُني المستشرقون بمقامات الحريري فترجمت إلى اللاتينية والألمانية والإنجليزية، إلا أنه يؤكد أن تأثيرها كان محدودًا، وبخاصة إذا قارنا بينها وبين" ألف ليلة وليلة "في هذا المجال؛ذلك أن المقامات، كما يقول، ليست القصة عمادها، بل عمادها الأسلوب وما يحمل من زخارف السجع والبديع، ثم يقول: إننا، مع ذلك، يمكن أن نرى أثرها في بعض القصص الإسباني الذي يصف لنا حياة المشردين والشحاذين، وإن لهذا القصص عندهم بطلًا يسمى بيكارون يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الإسكندري في مقامات بديع الزمان، وأبا زيد السَّروجي في مقامات الحريري) .

عرفت المقامة على أنها حكاية قصيرة قد تكون في صفحتين أو أكثر بحيث تلقى في مجلس واحد وأسلوبها متصنع بيانيا وبديعيا تشتمل على عظة أوناذرة أو مغامرة وتنتهي عادة بمفاجأة غير متوقعة . لها راو وبطل يعتمد على الحيلة ووسائل الخذاع والتلون ليحقق غرضه . كما عرفت على أنها " الأحدوثة من الكلام"[3]

كما أنّ هناك من الباحثين من تطرق إلى تعريف المقامة بأنّها شبه قصة تدور حول الاحتيال وتستخدم لإظهار البراعة اللغوية والأدبية .

وانطلاقا مما تقدم فإنّ المقامة :فن نثري يسرد فيه الكاتب روايات وقصصا بعبارات مسجوعة ذات لجماعة من الناس ، تدور حول الكدية والاحتيال وتستخدم لإظهار البلاغة اللغوية[4]

03 :ظهور ونشأة المقامة :

تعد مقامات بديع الزمان الهمداني من أهم الأعمال الأدبية التي خلّدت مبدعها وأكسبته الشهرة والشيوع والذيوع ، إذ استحدث من خلالها فنّا قصصيا جديدا في الأدب العربي اقترن باسمه ونسبت إليه ريادته وهو الذي كان متأثرا بأسلوب القصص الذي استلهمه من أدب القصة عند العرب ومن حيث اللفظ والسجع فكان يختار الغريب من غرائب اللغة وتأثيراتها كما تأثر بالروايات وأحاديث لابن دريد .

لم يسلك بديع الزمان الهمداني نهجا واحدا في تسميته لمقاماته حيث لجأ أحيانا الى تسميته مقاماته بأسماء البلدان كالمقامة البغدادية والبصرية والأهوازية والأصفهانية وهناك بعض المقامات سميت بأسماء بعض الحيوانات كالأسدية ، وهناك بعضها اطلق عليها نسبة الى الموضوع الذي اشتملت عليه كالمقامة الوعظية والفريضية والملوكية

الراوي في مقامات بديع الزمان الهمداني هو عيسى بن هشام فهي شخصية الراوي الذي يدخل أحيانا في القصة ويكون دائما متخفيا متنكرا يتبع الاسكندري من سوق إلى سوق ومن بلد إلى بلد ، وغايته كشف حيله وكأنه رجل شرطة واقتصر دور الراوي على رواية المقامات وجعله الهمداني محدثا اياه بالمقامات ففي كل مقامة يقول حدثنا عيسى ابن هشام

04 :نموذج من مقامات الهمذاني :

حَدَّثَنَا عِيَسى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :اشْتَهَيْتُ الأَزَاذَ، وأَنَا بِبَغْدَاذَ، وَلَيسَ مَعْي عَقْدٌ عَلى نَقْدٍ، فَخَرَجْتُ أَنْتَهِزُ مَحَالَّهُ حَتَّى أَحَلَّنِي الكَرْخَ، فَإِذَا أَنَا بِسَوادِيٍّ يَسُوقُ بِالجَهْدِ حِمِارَهُ، وَيَطَرِّفُ بِالعَقْدِ إِزَارَهُ، فَقُلْتُ: ظَفِرْنَا وَاللهِ بِصَيْدٍ، وَحَيَّاكَ اللهُ أَبَا زَيْدٍ، مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ وَأَيْنَ نَزَلْتَ؟ وَمَتَى وَافَيْتَ؟ وَهَلُمَّ إِلَى البَيْتِ، فَقَالَ السَّوادِيُّ: لَسْتُ بِأَبِي زَيْدٍ، وَلَكِنِّي أَبُو عُبَيْدٍ، فَقُلْتُ: نَعَمْ، لَعَنَ

اللهُ الشَّيطَانَ، وَأَبْعَدَ النِّسْيانَ، أَنْسَانِيكَ طُولُ العَهْدِ، وَاتْصَالُ البُعْدِ، فَكَيْفَ حَالُ أَبِيكَ ؟ أَشَابٌ كَعَهْدي، أَمْ شَابَ بَعْدِي؟ فَقَالَ: قَدْ نَبَتَ الرَّبِيعُ عَلَى دِمْنَتِهِ، وَأَرْجُو أَنْ يُصَيِّرَهُ اللهُ إِلَى جَنَّتِهِ، فَقُلْتُ: إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلاَ حَوْلَ ولاَ قُوةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيم، وَمَدَدْتُ يَدَ البِدَارِ، إِلي الصِدَارِ، أُرِيدُ تَمْزِيقَهُ، فَقَبَضَ السَّوادِيُّ عَلى خَصْرِي بِجِمُعْهِ، وَقَالَ :نَشَدْتُكَ اللهَ لا مَزَّقْتَهُ، فَقُلْتُ: هَلُمَّ إلى البيتِ نُصِبْ غَدَاءً، أَوْ إِلَى السُّوقِ نَشْتَرِ شِواءً، وَالسُّوقُ أَقْرَبُ، وَطَعَامُهُ أَطْيَبُ، فَاسْتَفَزَّتْهُ حُمَةُ القَرَمِ، وَعَطَفَتْهُ عَاطِفَةُ اللَّقَمِ، وَطَمِعَ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ وَقَعَ، ثُمَّ أَتَيْنَا شَوَّاءً يَتَقَاطَرُ شِوَاؤُهُ عَرَقاً، وَتَتَسَايَلُ جُوذَابَاتُهُ مَرَقاً، فَقُلْتُ: افْرِزْ لأَبِي زَيْدٍ مِنْ هَذا الشِّواءِ، ثُمَّ زِنْ لَهُ مِنْ تِلْكَ الحَلْواءِ، واخْتَرْ لَهُ مِنْ تِلْكَ الأَطْباقِ، وانْضِدْ عَلَيْهَا أَوْرَاقَ الرُّقَاقِ، وَرُشَّ عَلَيْهِ شَيْئاً مِنْ مَاءِ السُّمَّاقِ، لِيأَكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنيَّاً، فَأَنْحَى الشَّواءُ بِسَاطُورِهِ، عَلَى زُبْدَةِ تَنُّورِهِ، فَجَعَلها كَالكَحْلِ سَحْقاً، وَكَالطِّحْنِ دَقْا، ثُمَّ جَلسَ وَجَلَسْتُ، ولا يَئِسَ وَلا يَئِسْتُ، حَتَّى اسْتَوفَيْنَا، وَقُلْتُ لِصَاحِبِ الحَلْوَى: زِنْ لأَبي زَيْدٍ مِنَ اللُّوزِينج رِطْلَيْنِ فَهْوَ أَجْرَى فِي الحُلْوقِ، وَأَمْضَى فِي العُرُوقِ، وَلْيَكُنْ لَيِّلَي العُمْرِ، يَوْمِيَّ النَّشْرِ، رَقِيقَ القِشْرِ، كَثِيفِ الحَشْو، لُؤْلُؤِيَّ الدُّهْنِ، كَوْكَبِيَّ اللَّوْنِ، يَذُوبُ كَالصَّمْغِ، قَبْلَ المَضْغِ، لِيَأْكُلَهُ أَبو زَيْدٍ هَنِيَّاً، قَالَ: فَوَزَنَهُ ثُمَّ قَعَدَ وَقَعدْتُ، وَجَرَّدَ وَجَرَّدْتُ، حَتىَّ اسْتَوْفَيْنَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَبَا زَيْدٍ مَا أَحْوَجَنَا إِلَى مَاءٍ يُشَعْشِعُ بِالثَّلْجِ، لِيَقْمَعَ هَذِهِ الصَّارَّةَ، وَيَفْثأَ هذِهِ اللُّقَمَ الحَارَّةَ، اجْلِسْ يَا أَبَا زَيْدٍ حَتَّى نأْتِيكَ بِسَقَّاءٍ، يَأْتِيكَ بِشَرْبةِ ماءٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ وَجَلَسْتُ بِحَيْثُ أَرَاهُ ولاَ يَرَانِي أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ، فَلَمَّا أَبْطَأتُ عَلَيْهِ قَامَ السَّوادِيُّ إِلَى حِمَارِهِ، فَاعْتَلَقَ الشَّوَّاءُ بِإِزَارِهِ، وَقَالَ: أَيْنَ ثَمَنُ ما أَكَلْتَ؟ فَقَالَ: أَبُو زَيْدٍ :أَكَلْتُهُ ضَيْفَاً، فَلَكَمَهُ لَكْمَةً، وَثَنَّى عَلَيْهِ بِلَطْمَةٍ، ثُمَّ قَالَ الشَّوَّاءُ: هَاكَ، وَمَتَى دَعَوْنَاكَ؟ زِنْ يَا أَخَا القِحَةِ عِشْرِينَ، فَجَعَلَ السَّوَادِيُّ يَبْكِي وَيَحُلُّ عُقَدَهُ بِأَسْنَانِهِ وَيَقُولُ: كَمْ قُلْتُ لِذَاكَ القُرَيْدِ، أَنَا أَبُو عُبَيْدٍ، وَهْوَ يَقُولُ: أَنْتَ أَبُو زَيْدٍ، فَأَنْشَدْتُ :

أَعْمِلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلـهْ *** لاَ تَقْعُدَنَّ بِكُلِّ حَـالَـهْ

وَانْهَضْ بِكُلِّ عَظِـيَمةٍ *** فَالمَرْءُ يَعْجِزُ لاَ مَحَالَهْ .